حول دور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الثقافة العربية

أ . حلمى الشعروای*

السيدات والسادة :

يمض اليوم ربُع قرن على قيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كواحدة من أكبر مؤسسات جامعة الدول العربية ، بل ومن المؤسسات الثقافية العربية عامة . ومعنى ذلك أننا أمام جِماع الهموم الثقافية العربية ، وقضايا المثقف العربي بل والمواطن العربي مع مؤسساته المسئولة .

وقد تكون مصادفة أن حدث قيام المنظمة عام ١٩٧٠ يرتبط فيها الذهن العربي ببداية عقد من المتغيرات الكبيرة على المستوى العربي ، يضع نشأة أية مؤسسة موضع التوقعات والتأملات ، و موضع الاشفاق في نفس الوقت . لذلك يجدر بنا عند تأمل هذه الفترة من ربع القرن أن نتناول وضع « مؤسسة الثقافة العربية » بأكثر من تناولنا لأحوال « المنظمة العربية للثقافة » ؛ ومع ذلك فالمنظمة العربية لم تنشأ من فراغ ، ولم تصب جهدها في عالم جديد عليها طوال ربع قرن ، ومن هنا فإنها تمثل جزءاً من هموم متصلة لهذه الأمة نحو « المأسسة » الجماعية أو معاناة التوفيق ، أو الانفراط المضيّع للجهود .

لقد انطلق قيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن " ميثاق للوحدة الثقافية العربية " اعتمد من كافة النظم العربية عام ١٩٦٤ ، كما تولى بعضُ أعظم المثقفين العرب قطاعات فرعية للثقافة في الجامعة العربية يكفي أن نذكر منهم ساطع الحصري مؤسس معهد

* مدير مركز البحوث العربية – القاهرة

الدراسات العربية (١٩٥٣) وطه حسين مدير ادارة الثقافة لبعض الوقت في الستينيات ، وللشخصيتين مالهما من باع في التأسيس والتنظير . كما سبقها عقد عشرة مؤتمرات لمسئولي السياسات الثقافية والتربوية بين ١٩٤٧ ، ١٩٧٠ وإطاراً لكل ذلك كانت روح عربية متدفقة تشق عباب الأرض العربية طولاً وعرضاً . إذن فقد ورثت المنظمة عند قيامها ما يستحق ان تفاخر به وتطمئن إليه ، خاصة وقد تواتر على ادارتها مباشرة قيادات ثقافية وفكرية نعتز بمساهماتهم كامل الاعتزاز أمثال المرحوم الاستاذ الدكتور / عبد العزيز السيد ثم الاستاذ الدكتور / محي الدين صابر ولكل منهما في الذاكرة الوطنية والعروبية حظا عظيماً يُحمل الاستاذ محمد الميلي قائدها الحالي أعباء نعرف أنه أهل لها ، وأنه ذو التاريخ النضالي الذي يوفر له المقدرة على دفعها لعوالم جديدة من الفكر والابداع .

لكن .... دعونا نعتبر التقدير مسلمة ، واحترام الجهد المتواصل موقفاً جديراً بأهله ، لنلقي بملاحظتين أساسيتين جديرتين بالتأمل المتواصل أيضاً بما قد نختلف فيه او نتفق ، ولكن الكثيرين لا يستطيعون إنكار انشغالنا جميعاً بهما ، الأولى تتعلق بالهيكل التنظيمي لمثل هذه المؤسسات العربية ومنها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والثانية تتعلق بمفهوم : " الوحدة الثقافية العربية " الذي ينطلق على أساسه عمل المنظمة .

أولاً - بالنسبة للمسألة التنظيمية :

لست هنا بالراغب في مناقشة تفاصيل ليس ذلك موقعها ولا يسمح بها الوقت ، كما لا يقلل ذلك بأي حال من جهد من قاموا على شؤون المنظمة طوال هذه الفترة ، وقد توفر للمنظمة من الخبرات والعقول مالم يتوفر لعشرات المنظمات الاقليمية او الدولية الأخرى ، ولكن مشكلة المفاهيم التأسيسية أنها تحاصر ، ولا تبارح الجهود المنطلقة عنها ، كما ان

مناقشتها مسئولية كل الجماعة الثقافية في الوطن وليست مجرد مسئولية لهذه المنظمة أو تلك . وقد تعرضت معظم تنظيمات العالم الثالث ، الثقافية مثل السياسية والاقتصادية لهذا الموقف من محاولة التكيف مع الانماط العالمية ، فاكسبوا " العولمة " سيئة السمعة الآن اساساً مبكرا في ترتيبات نهضتنا وشواغلنا القومية الخاصة . والمنظمات العربية بوجه خاص تقوم على مفاهيم قومية لها تجاوزها الخاص للحكومي والقطري ، ومن هنا كان لابد أن يعكس ذلك نفسه على التنظيم وتخطيط العمل ، حتى لا نكرر سلبيات البيروقراطية والتحكم التي تئن منها المنظمات الدولية التي نقلنا عنها هياكلها ، فبات الانفاق مثل التوجيه الحكومي مستهلكاً للقليل الذي يتوفر لهذه المنظمات ، وباتت محاولات الخروج عن هذا الإطار مما يعرض القائمين به لعقاب شهدنا مثاله واضحاً في منظمة مثل اليونسكو ، وهي قرين المنظمة العربية المباشر ...

إننا لا نجد تبريراً قوياً لقيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – وهي في أفضل الظروف – علي نسق ومعايير – تضعها الآن في أصعب الظروف – دون منافذ حقيقية على تعاون الجماعة الثقافية في الوطن العربي لاخراجها من مأزق الامكانيات المادية الي الحركة المتحررة للمثقفين في إطارها.

ثانياً – أما بالنسبة لمفهوم الوحدة الثقافية العربية ، فإنه من أكثر العناصر الشائكة في هذه المناقشة ، لكن مما قد يشجع على ذلك أن كاتب هذه السطور لا يعوزه التأكيد على منطلقاته القومية في الثقافة والسياسة على السواء ، وقد لا يصدق البعض انني ناقشت بعض جوانب هذه المسألة مع ساطع الحصري نفسه في الخمسينات ، كما اتصلت المناقشة منذئذ مع العديد من قيادات المنظمة ، وذلك أني خشيت دائماً من " المفهوم اللاتاريخي " للوحدة

الثقافية في هذا الوطن ، رغم ثقل التاريخ عليها ، وقد يكون هذا الثقل التاريخي نفسه هو أصل " اللاتاريخية " إذ يتحول التراث الثقافي الي مستوى الاسطورة او المثال ، وتعوّق قوانين التطور والتحول الاجتماعي والاقتصادي و يغيب " مفهوم التاريخي " المتغير والمتحول دائماً . وإن كان الجديد هو الابن الشرعي للتاريخ إلا أنه ليس دائماً على شاكلته وفق قوانين التطور الفاعلة . بل ان الشائع منهجياً الآن أننا نفسر الماضي بالحاضر وليس العكس ، لكن السائد لدينا مازال هو العكس ويؤثر ذلك على الخطط والعمل وأنماط السلوك الثقافي والحياتي بما يشكل هما حقيقياً للجماعة الثقافية ويأمل ان يصير ذلك هو هم المنظمات الجامعة ايضاً .

وقد يكون المدرك العام لهذه الاشكالية مترددا في معظم الوثائق الصادرة عن منظماتنا: قرأتها في كتب التعريف بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، كما قرأتها بارزة في الخطة الشاملة للثقافة العربية الصادرة عام ١٩٨٥ بل ولم تغب مثل هذه الأفكار عن استراتيجيات تطوير التربية أو محو الأمية والخطة العلمية ، وافتتاحيات المؤتمرات ... الخ وهي أفكار كانت موضع مناظرات واسعة شهدتها " المرحلة التونسية " في حياة الجامعة العربية وأخصبت العديد من الاستراتيجيات الاجتماعية والاقتصادية والاعلامية مثلما تم ذلك في عالم الثقافة ، وساهم المثقفون بأكبر دور في حياة تنظيمات العمل العربي في تلك الفترة مما لا يمكن إنكاره . وفي هذه المخططات جميعاً نقرأ عن التنوع الثقافي الي جانب قومية الثقافة ، كما نقرأ عن الديمقراطية الثقافية والتكامل والتكافل وعصرنة الثقافة والأمن الثقافي ، والتخطيط الاستراتيجي والخصوصية الحضارية ... الخ

لكن ... ما ان يعبر المرء هذه المنظومة من الأفكار التي ساهم في صياغتها مثقفون

مدركون بالتأكيد لحقيقة الاشكالية حتى تَفْجأ منظومة أخرى من التحفظات والأطر التقليدية للمخطوطات والموسوعات وكتب التراث والمعاجم وطبيعة العلاقات الثقافية بالعالم الخارجي .

وليُسأل المثقف العربي في الشارع الثقافي عن علاقته الباردة بأكثر من عشرين دورية صادرة عن المنظمة ، في عصر تشكل فيه الدوريات – لا الكتب – المصدر الرئيس لتفاعل ومعارف المثقفين والباحثين الآن . وليسأل الباحث العربي عن مدى استفاده الي اكثر من الف مطبوع تتحدث عنها تقارير المنظمة حتى بضع سنوات خلت . وأنا لا اعتقد أن حسن النية كان مفتقداً بأي حال من وراء هذا الجهد . ولكني أظن أن آلية العمل بتلك الانماط الدولية الشائعة التي تحيل كل شأن ثقافي وفكري الي المؤتمرات الحكومية المتباعدة والمجالس العليا، والتراتبية الداخلية المعقدة ، مما يستوجب النظر في مسئوليته بدرجة أو بأخرى او ان نتحسس موقف المثقف من السلطوية التي قد تقترن بها هذه الجهود . ولقد ادت هذه الهيكلة لمهمة ثقافية قومية متجاوزة بطبيعتها ، إلى التأثير على الإشكالية الأخرى ، إشكالية المفاهيم . فلا شك ان مثل تلك الهيكلة للعمل كفيلة وحدها ان توسع الهوة بين المفاهيم النظرية التي يشقي المثقفون في صياغتها ، وبين البرامج التنفيذية التي يتحكم فيها اصحاب السلطة والمال ، أو تقوم عليها خبرات رسمية لا تحب ان تشقيها الأفكار .

ومع ذلك ، فإني اعتقد ان الأمر اكثر تعقيداً ، وأنه يتعلق ايضاً بالبنية القطرية للخطة الشاملة او الاستراتيجية مما يجب ان يكون موضع دراسة مفصلة ومنفصلة . وفي تقديري ان المسكوت عنه في هذه الخطط له قدر كبير من دلالة المكشوف عنه .. ولنمر سريعاً على أمثلة لذلك :

أولاً : ففي المكشوف عنه في تاريخ المنظمة ، احتفاء كبير بالتراث ، وعدم الاستعداد للنظرة النقدية لهذا التراث في نفس الوقت للنظر في إزاحته الدائمة لجهد التحديث والعصرنة

البنيوية وهي النظرة التي تشير اليها فقرات متناثرة في الخطط والاستراتيجيات ، وقد امتد ذلك لمفهوم تاريخ اللغة العربية نفسه ، مما اثر في مجمله على مفهوم قومية الثقافة العربية ووحدتها ، وجعل " تاريخ الحضارة العربية الاسلامية " هو المثال وحده لواقع الثقافة القومية المعاصرة دون مراعاة الكلى والجزئي في هذه القضية او مراعاة المقدس والتاريخي فيها ، وقد حجبت هذه المثالية الانتقائية اي حضور حقيقي في الواقع للتنوع والتكامل الوارد في الاستراتيجيات والخطط ، بل ان حديث التنوع كله تقريبا بات مسكوتا عنه في هذه الخطط ، مثل تنوع اللهجات ، والتنوع في ثقافة القوميات التي يضمها الوطن العربي على اساس قومية الثقافة ووحدتها ، وتنوع التراث الشعبي الي جانب الرسمي المدون ، والتنوع الرأسي او التاريخي في ثقافة بعض الاقطار مثل مصر .

ثانياً : إن مفهوم الثقافة القومية الموحدة .. والمتكاملة قد دفع ولا شك ببعض المؤسسات والمشروعات التي لا ينكر جهدها او حضورها ، والمكشوف عنه كثير في جهد إعداد المعاجم والموسوعات وتصنيف المخطوطات ، ثم الجهد المتواصل لمعهد البحوث والدراسات العربية ، ومتابعة مشكلات التعليم العالي والحضور الثقافي التعريبي في منطقة المغرب ، ومحاولات دعم التعاون العربي الافريقي ثقافياً .. الخ ، لكن المسكوت عنه هنا ايضاً لا يقل اهمية ، فلو ان المنظمة قد التزمت بمفهوم وثائقها عن الوحدة والتنوع ، أو تجاوز القومي للقطري والحكومي ، أو تجاوز المفاهيمي للبراجماتي ، لكان عليها – وهي التي قامت في السبعينيات ، عقد المتغيرات السياسية والاقتصادية في العالم والوطن العربي – أن تفتح بابا واسعاً للثقافة السياسية ، تحل ملغزاتها في التراث عن الشورى والحاكمية والاجتهاد . وتدرس أسس المشاركة العصرية في بنيتنا الاجتماعية ، وتبسط هذا كله للاجيال الشابة أو في منتديات حية للمثقفين . ومثل الثقافة السياسية غاب الاهتمام بتطوير

السوسيـولوجيا والانثروبولوجيا العربية ، وأمامنا مثال جهد اليونســـكو في هذا المجال في " ديوجين " ومجلة العلوم الاجتماعية تطرح فيها الافكار من أقصى اليمين واليسار ، بينما نسكت نحن عن الاضافة في هذا المجال الهام ونحن نملك ذخيرة تبدأ بعلم العمران الخلدوني مرورا بثروة الاثنوجرافيا العربية في كتب الرحلات ، ووصولا الى مثقفينا الجادين الذين يخصبون الساحة بالابداعات الفكرية . و كانت المناقشات المعمقة= لكل ذلك على الساحة العربية بمعرفة منظمة قومية ، جديرة ان تبرز اسهامنا المعاصر بالشكل اللائق بعصرنا . ولعلى وأنا أشير لذلك أن أنبه لمخاطر غياب الثقافة السياسية والسوسيولوجية الجادة في مجتمعنا حتى الآن ، على اكتساح البحوث الأجنبية لهذه الساحة ، أو تعبئة جهود علمائنا ومثقفينا في بوتقة جدول أعمال بحثي أجنبي لم نشارك في صياغته بل لقد امتد أثر ذلك إلى انقلاب الثقافة السياسية على أيدى البعض لتجعل انتماءنا القومي انتماء جغرافيا في ظل الشرق اوسطية المطروحة ، بل وتضع المشروع القومي مع المشروع الصهيوني في نفس الكفة التي يوازيها نظام اقليمي جديد في اطار ما يسمى بالنظام العالمي الجديد .

ثالثاً : في مجال **العلاقات الثقافية الخارجية** – كمثال ثالث وأخير وليس آخراً – تسجل الخطط والتقارير كثيراً من الجهد المكشوف عنه ايضاً رغم الامكانيات المحدودة مؤطرة بمفاهيم عن الحوار والتفاعل والاستيعاب والخصوصية الحضارية .. الخ ، ورغم اني سأبادر بوضع مشكلة الترجمة على رأس المسكوت عنه في جهد المنظمة ، فلا يظنن أحد انه لم يتم الاشارة لها في مخططاتنا أو لم يقم لها جهاز ضمن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف بدمشق . لكن من الصعب ان يجد المواطن العربي أثرا يذكر في حياتنا الثقافية او العلمية لمثل هذا الالتزام . ولعلنا لا نستطيع أن ننسى كيف شهدت حضارتنا اكبر حركة للترجمة في تاريخ الثقافات المماثلة ، وتأثيرها البالغ على الفلسفة والعلوم العربية ، وكيف

اثرت ترجمة تراثنا نفسه في الحضارة الاوروبية تحديداً .. ونعرف صعوبات وتكاليف الترجمة في العصر الحديث ، وكما نعرف أعلاما في فنون الترجمة فإننا نعرف السلبيات التي تعرض لها هذا الفن على يد البعض . فهل آن لنا أن ندرك أن المشكلة تزداد حدة بضعف مستوى اللغات الاجنبية في تعليمنا الوطني في الوقت الذي تشتد الحاجة حدة ايضاً للتعرف على ما يجري حولنا بشكل مدقق، بل و أن نحيط من حولنا ايضاً ببعض انتاجنا الثقافي المتميز ، حتى يكون الحوار فعالاً ومثمراً فعلاً ؟ و هل يراعي المتعاملون مع هذه المشكلة من خبرائنا ان العالم ليس " شمالاً " فقط وأن الإبداعات في " الجنوب " لا تقل ثراء وأهمية ؟ إن القارئ لبعض مخططاتنا الثقافية ، إذ يدهش لغياب برامج الترجمة على هذا النحو ، يفاجأ بالحديث عن نشر الثقافة العربية بأسلوب تبشيري ملحوظ وباليات تنحصر في عالم اللغة او التزويد بكتب التراث التاريخي ، متجاهلين ان الحوار الثقافي الحقيقي يتطلب ما هو أبعد من ذلك ، أنه إطار وسياق ثقافي جديد ومتفاعل ، يشكل فيه البعد الاجتماعي نفس قيمة العمل الثقافي في الشامل .

وأخيراً ... لعلى قد اثقلت عليكم بالآمال باكثر مما قدمت من التعريف بمنظمتنا الثقافية العربية القومية ، أو لعلى خضت فيما ليس مطروحاً للمناقشة ، لكني أدعى أن بحر الثقافة يسع كثيراً من السباحين ، وأعرف أن الثقافة العربية القومية أكبر من المنظمة ، وأرحب من الخطط الحكومية والقطرية ، وتحتاج الى مشاركة واسعة من الجماعات الثقافية المستقلة والمتحررة ، المستقلة عن الهياكل الرسمية التقليدية ، والمتحررة من الرؤى المثالية والواحدية . و بيان ذلك متوقع عند من سيطرحون القضايا المستقبلية في التخطيط والعمل ، وثقتي كبيرة أن قيادة قادرة عل التصدي والمطاولة كفيلة أن توفر للمنظمة مستقبلاً متميزاً مهما كانت الصعاب .